مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2570 0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد: 07 العدد: 02 جوان (2023) ص284/ 297

ألفاظ الطبيعة فاعليتها ومدى تأثيرها في التصوير الفني في سورتي الحج والروم

السماء والريح والجبال أنموذجا

The Effectiveness and Extent of Impact of the Nature Utterances In the Photography Art in the Noble Quran

حويشي أم كلثوم*

جامعة الحاج لخضر باتنة

houichioumkeltoum@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال: 2021/10/07

تاريخ القبول: 2023/05/20

الكلمات المفتاحية:

- ✓ تصوير.
- ✓ طبيعة
- ✓ دلالة.
- ✓ صورة.
- ✓ إيحاء.

الملخص

إن ما تملكه لفظة القرآن من مقدرة على تحريك النفس، والوجدان، والعقل، والمخيلة يشهد لخصائصها بالتفرد في مميزاتها. والتصوير أداة مهمة يسخرها القرآن في ألفاظه لعرض صورة المشهد ولتقريب الصور إلى الأذهان وتشخيص الحياة بألغازها، وحركاتها، وأبعادها، وتجسيدها في صورة حسية وإعطائها صفة الحياة. إنها تحيل القرآن إلى نبع من الحياة يلتجئ إليه الإنسان، فيجد فيه حقيقة نفسه وجوهر وجوده.إن الحضور المكثَف لألفاظ الطبيعة في القرآن الكريم يعكس الدقة المتناهية في الوصف، والإحكام في السبك، وقوة الإيحاء. وهذا ما يحاول المقال الوقوف عنده قصد توضيحه و بيان مساهمة ألفاظ الطبيعة في تشكيل الصور والمشاهد، ومدى فاعليتها و تأثيرها في التصوير الفني في سورتي الحج والروم.

Article info

Received
07/10/2021

Abstract :

*المؤلف المرسل

The Quran Utterance is witnessed by its unique characteristics and features of the ability it owned to move the self, the feelings, the brain and the fiction. The photography is an essential means which the Quran grants into its utterances to display the scene's photo, to approximate the photo to the brains and to diagnose life with its mysteries, its movements, dimensions and its embodiment in a sensitive photo and giving it the life attribute, it turns the Quran into a source of life to which the living being resort, where he finds himself reality and his existence essence. The intense presence of the natural utterances that firstly attracted the mediator for art photography in the Noble Quran and which reflects the ultimate precision of the attribution and the inspiration's strength.This is what the article tries to stand with in order to clarify. This is what the article attempted to stand on in order to clarify it; also its goal to state the nature's utterances contribution in the photos shaping and to identify their effectiveness and the extent of their impact in the art photography in the Noble Quran.

Accepted
20/05/2023

Keywords:
The Nature,
The Photography,
The Inspiration,
The Significance.

. مقدمة:

لطالما ظلت الصورة الفنية واجهة الاهتمامات الأدبية، والنقدية، والبلاغية، ومنطلقا منهجيا لدى الدارسين مهما اختلفت وجهاتهم ومرجعياتهم، فتباينت التعاريف واختلف كل من تناول مفهوم الصورة إنما كان من وجهة تخصصه المعرفيّ، ولكن الجامع بين كل هذه التخصصات والدراسات هو ذاك التعامل الموحد مع الصورة والإدراك التام لفاعليتها ومساهمتها في بناء المعاني وتجليتها.

وينفرد التصوير في القرآن الكريم بالقدرة على تحريك النفس والوجدان والعقل والمخيلة إذ يمنح الألفاظ الحياة الشاخصة والحركة المتجددة فتغدو حقيقة ماثلة تجسد كل المعاني الذهنية وتعبر عن الحالة النفسية، لتكون الصورة بصوتها وإيقاعها ونغماتها أسرع نفاذا وأبلغ أثرا في النفس البشرية. ودارس لفظة القرآن يلمس روعة ما فيها من الجمال والفن وصورة الإبداع التي تشع منها، و ظلال المشاهد الحية، وقوة الحركة فيها، ومقدار ما تملكه من سيطرة على الوجدان والمخيلة ومدى تأثيرها على النفس.وتأتي هذه الدراسة في مصاف الدراسات التي تعنى بدراسة مفردات القرآن الكريم وتهدف إلى الوقوف على بعض تجليات الدلالات الإيحائية لبعض ألفاظ الطبيعة الواردة في القرآن الكريم ومحاولة إبراز فاعليتها ودورها في تشكيل الصورة والمشهد القرآني.

إلا أن هناك جملة من التساؤلات تطرح نفسها كإشكالية وهي: كيف لألفاظ الطبيعة أن تساهم في تشكيل المشاهد وتقريب الصور من العقول؟

وهل تكمن فاعلية ألفاظ الطبيعة في تجسيد المعاني الذهنية فحسب أم تتجاوزها؟

وما مقدار ما تملكه ألفاظ الطبيعة من سيطرة على الوجدان والمخيلة ومدى تأثيرها على النفس والعقل؟

وللإجابة على هذه التساؤلات كان لزاما علينا أن نعرج على مفهوم التصوير لغة واصطلاحا لننتقل بعدها إلى الحديث

عن الصورة الفنية في التراث العربي وعند المحدثين، ونفصل القول فيما بعد حول التصوير في الخطاب القرآني ونخص ألفاظ الطبيعة-السماء والرياح والجبال- ومدى فاعليتها في تشكيل صور المشاهد القرآنية في سورتي الحج والروم.

وأما منهج الدراسة المتبع فقد كان المنهج الوصفي والتحليلي لمناسبتهما لطبيعة الموضوع.ويكتسي هذا البحث أهميته من أهمية القرآن الكريم وقدسيته من جهة، وما تملكه ألفاظ القرآن الكريم من دقة في الوضع والاختيار ودقة في الوصف والمعنى.

1.مفهوم التصوير:

1.1. لغة: ورد في الصحاح: الصور بكسر الصاد لغة في الصور جمع صورة، وصوَره الله صورة حسنة، فتصور.ورجل صيَر شير أي حسن الصورة والشارة(الجوهري1956ص716).والصورة في تاج العروس: الشكل والهيئة، والحقيقة والصفة، والجمع صور بضم ففتح...وقد صوَره صورة حسنة، فتصور: تشكّل. وتستعمل الصورة بمعنى النوع والصفة(الزبيدي1966،ص358).والصورة: ما ينتقش به الإنسان ويتميز به عن غيره. وذلك ضربان: ضرب محسوس يدركه الخاصة والعامة، بل يدركها الإنسان وكثير من الحيوانات، كصورة الإنسان، والفرس، والحمار. والثاني: معقول يدركه الخاصة دون العامة، كالصورة التي اختص الإنسان بها من العقل، والروية، والمعاني التي ميَز بها(الزبيدي1966ص359)..

وجاء في مقاييس اللغة لابن فارس: صوَر يصور، إذا مال، وصرت الشيء أصوره، وأصرته إذا أملته إليك،...ومن ذلك الصورة صورة كل مخلوق، والجمع صور، وهي هيئة خلقته، ورجل صير: إذا كان جميل الصورة(ابن فارس1979ص320).والصورة في المعجم الوسيط، هي الشكل والتمثال المجسم، وفي التنزيل العزيز: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (8)﴾ [الانفطار7، 8]. وصورة الشيء ماهيته المجردة، وخياله في الذهن والعقل(مجمع اللغة العربية1960ص553). وتصورت الشيء مثلت صورته وشكله في الذهن، ويراد بها الصفة، كقولهم صورة الأمر كذا أي صفته، وصورة المسألة كذا أي صفتها(الفيومي1996ص182). ينحصر المعنى اللغوي للصورة بين المثال والهيئة والشكل .

2.1 اصطلاحا:

لا يكاد يستقر مفهوم الصورة عند حد معين، وهذا ما عبر عنه أحد الدارسين بقوله: "كثر التأليف والتوليف في الصورة الفنية أخيرا حتى اختلطت المفهومات وتشعبت المناهج، فلاقت الصورة من هذه الدراسات عناء وغموضا كبيرين(الصائغ1999ص98).

ويذهب فرانسوا مورو أبعد من ذلك حين قال:" لفظة الصورة من الألفاظ التي يجب على دارس الأسلوب أن يستخدمها بحذر وفطنة خاصين، فهي لفظة غامضة وغير دقيقة معا. غامضة لأنها يمكن أن تفهم بمعنى عام، غائم، وواسع جدا، وبمعنى أسلوبي صرف. وغير دقيقة لأن استخدامها حتى في المجال المحدد للبلاغة مائج للغاية وتعريفه بالغ السوء"(مورو1995ص19). والصورة في قاموس المصطلحات اللغوية، والأدبية هي:" خيال الشيء في الذهن والعقل، وصورة الشيء ماهيته المجردة"(قاموس1987ص247). والصورة الأدبية حسب القاموس ذاته:"هي ما ترسمه لذهن المتلقي كلمات اللغة شعرا أو نثرا من ملامح الأفكار، والأشياء، والمشاهد، والأحاسيس، والأخيلة، وتكون إما فكرة نقلية تقريرية ترسم لها معادلها الحقيقي في أخص خصائصه الواقعية. وإما معادلا فنيا جماليا يوحي بالواقع ويومئ إليه بأشباهه من الرسوم واللوحات عن طريق الحشد الإيقاعي، وسائر ضروب الإيماء البلاغي والبديعي، والصياغات التشكيلية، والتقنيات الأسلوبية، واللغوية المختلفة"(قاموس 1987ص247).

ويحدد "فرانسوا مورو" الصورة بقوله:" ينبغي تعريف الصورة أنها توضيح، أو في حال التشبيهات فقط تقريب شيئين

ينتميان إلى مجالات متباعدة إلى حد ما "(مورو1995ص85) وأمَا "أبرامز" فقد توقف عند كلمتي "image"و " imagery" في معجم المصطلحات الأدبية، وقال: بأن "مصطلح الصورة يراد به الشكل المجسم والأشياء القابلة للرؤية البصرية. "(السيد1995ص28)

ولعل أدق تحديد لمفهوم الصورة في تراثنا العربي يعود إلى عبد القاهر الجرجاني حين قال: "واعلم أن قولنا الصورة إنما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا، فلما رأينا البينونة بين آحاد الأجناس تكون من جهة الصورة.. ثم وجدنا بين المعنى في أحد البينين وبينه في الآخر بينونة في عقولنا، وفرقا عبرنا عن ذلك الفرق وتلك البينونة بأن قلنا: للمعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك..."(الجرجاني2003ص466) وعرّف جابر عصفور الصورة بقوله:" إنها الجوهر الثابت والدائم في الشعر، قد تتغير مفاهيم الشعر ونظرياته، فتتغير بالتالي مفاهيم الصورة الفنية ونظرياتها. ولكن الاهتمام بها يظل قائما مادام هناك شعراء يبدعون"(عصفور1992ص7). وهكذا جعل جابر عصفور الصورة الروح النابضة، والمحرك الرئيسي في الإبداع الشعري.

والتصوير عند أحمد مطلوب هو: "استحضار صورة شيء ليكون قريبا، أو معروضا عرضا فنيا بديعا يوحي بالمعنى ويؤثر في النفس"(مطلوب1989ص348).وعليه فمهمة التصوير "تقريب الأشياء إلى ذهن المتلقي مع إضفاء الجمال عليها. والتصوير مرور الفكر بالصورة الطبيعية التي سبق أن شاهدها، وانفعل بها ثم اختزنها في مخيلته مروره بها يتصفحها"(الخالدي1988ص74)..

وخلاصة القول فيما سبق تكمن في عدم استقرار وتحديد دقيق لمفهوم الصورة، إذ ظل يتأرجح بين استخدامات شتى، تراوحت بين الصورة الفنية، والصورة البيانية، والصورة الأدبية، والصورة الشعرية. ولكنها لا تكاد تخرج عن الدلالة على الشكل، والهيئة، والمثال.

وإذا ما تفيئنا ظلال الخطاب القرآني رغبة منا في الوقوف على حضور مادة « صور» باشتقاقاتها المختلفة، فإننا نجد أنفسنا بإزاء ستة مواضع، ألا وهي:

- قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران 6]

-﴿ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾[الأعراف 11].

-﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر64]

-﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[الحشر24]

-﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[التغابن3]

-﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (8)﴾[الانفطار 7، 8].

والمتأمل للآيات الكريمة يدرك تمام الإدراك بأن التصوير قد ارتبط بفعل الخلق والبرء، وقد ذكر ابن عاشور في تفسيره، أن التصوير: "جعل الشيء صورة. والصورة الشكل الذي يشكل به الجسم، كما يشكل الطين بصورة نوع من الأنواع"(ابن عاشور2000ص29)، وكما بيّن ابن عاشور السر في عطف جملة "صوركم" بالحرف "ثم" الدالة على تراخي رتبة التصوير عن رتبة الخلق، فقال:" لأن التصوير حالة كمال في الخلق، بأن كان الإنسان على الصورة الإنسانية المتقنة حسنا وشرفا بما

فيها من مشاعر الإدراك والتدبير(ابن عاشور2000ص30)، وعبَر عن هذا الخلق بالفعل "صوركم"، لأن التصوير خلق على صورة مرادة تشعر بالعناية. وقد عدل عن فعل الجعل إلى فعل التصوير بقوله "وصوَركم" لما يقتضيه فعل التصوير من الإتقان والتحسين في قوله تعالى: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[غافر:64].(ابن عاشورص24)

وذكر القرطبي في تفسيره أن المصوَر هو مركب الصور على هيئات مختلفة، فالتصوير فعل تابع للخلق والبراية. والتصوير عنده هو: التشكيل الذي يكون به صورة، وهيئة يعرف بها ويتميز عن غيره بسمتها(القرطبي.دت،ص48).وذكر ابن عاشور في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿هو الخالق البارئ المصور﴾ بأن المصور: مكون الصور لجميع المخلوقات ذوات الصور المرئية. وقال: إنما ذكرت هذه الصفات متتابعة، لأن من مجموعها يحصل تصور الإبداع الإلهي للإنسان، فابتدئ بالخلق الذي هو الإيجاد الأصلي، ثم بالبرء الذي هو تكوين جسم الإنسان، ثم بالتصور الذي هو إعطاء الصورة الحسنة(ابن عاشور2000ص28).

ولا يكاد يخلوا الكلام العربي لاسيما الشعر العربي من ذكر للصورة بمختلف صيغها الاشتقاقية، وفي شتى السياقات الدلالية، ومن ذلك: قول عنترة (الخوري1983ص87):

دعـــوا المـــوت يـــأتيني علـــى أي صـــورة أتـــى لأريـــه مـــوقفي وطعـــاني

وقول زهير بن أبي سلمى (طماس2005ص71):

لســـان الفتـــى نصـــف ونصـــف فـــؤاده فلـــم يبقـــى إلا صـــورة اللحـــم والـــدم.

وقول النابغة الذبياني(أبو الفضل د.ت،ص58):

متـــوج بالمعـــالي فـــوق مفرقـــه وفـــي الـــوغى ضـــيغم فـــي صـــورة القمـــر

ويقول أبو نواس(أفندي1998ص115):

يحـــار رجـــع الطـــرف فـــي وجهـــه و صـــورة الشـــمس علـــى صـــورته

ومما سبق يتضح لنا أن الصورة حاضرة وبكثافة في الشعر العربي، ولا تكاد تخرج عن معنى الشكل، والهيئة، والمثال.وقد ميَز أبو هلال العسكري بين الصورة والهيئة، حين ذهب إلى أن الصورة اسم يشمل جميع هيئات الشيء لا بعضها، كما يطلق على ما ليس بهيئة، كقولنا صورة الأمر كذا، أما الهيئة فتقع في البنية أي: الشكل المادي(العسكري2002ص181).وبهذا تكون الصورة خاصة بالهيئات، أما البنية فهي الشكل المادي.

2. الصورة الفنية في التراث العربي:

يحدد الجاحظ موقفه من القضية حين نجده يورد مصطلح التصوير في سياق تعريفه للشعر حين يقول: "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي، والعربي، والبدوي، والقروي، والمدني. إنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك. فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير." (الجاحظ دت ص131)

ويرى جابر عصفور أن مصطلح التصوير تم تداوله قبل الجاحظ، بيد أنه ينطوي على دلالة خاصة تشف على ثلاثة مبادئ. أولها أن للشعر أسلوبا خاصا في صياغة الأفكار أو المعاني يقوم على إثارة الانفعال وحمل المتلقي على تبين تصور ما. وثانيها أن أسلوب الشعر في الصياغة يقوم في الغالب على التقديم الحسي للمعنى، وبذلك يكون التصوير مرادفا لمصطلح التجسيم. وثالثها أن هذا التقديم الحسي للشعر يجعله مشابها للرسم في أسلوب التشكيل، والصياغة، والتأثير، والتلقي رغم تباين مادة التصوير في كل منهما(عصفور1992ص256). وقد أجاز قدامة بن جعفر للشاعر أن يخوض في أي معنى شاء: "إذا كانت المعاني بمنزلة المادة الموضوعة والشعر فيها كالصورة، كما يوجد في كل صناعة من أنه لابد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصور منها، مثل الخشب للنجارة، والفضة للصياغة. وعلى الشاعر إذا شرع في أي معنى كان من الرفعة، والضعة، والرفث، والنزاهة، والبذخ، والقناعة أن يتوخى البلوغ من التجويد في ذلك إلى الغاية المطلوبة "(جعفر 1978ص7).

أمَا أبو هلال العسكري فقد ألح على بعد الصورة المقبولة المقترنة بحسن الأداء، وذلك حين عرَف البلاغة بقوله: "البلاغة كل ما تبلَغ به المعنى قلب السامع، فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة، ومعرض حسن"(العسكري1981ص35).

ونقل العسكري عن العتابي قوله: "الألفاظ أجساد والمعاني أرواح. وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدمت منها مؤخرا أو أخرت منها مقدما أفسدت الصورة وغيَرت المعنى، كما لو حول رأس إلى موضع يد، أو يد إلى موضع رجل، لتحولت الخلقة وتغيَرت الحلية"(العسكري1981ص147). أما ابن رشيق القيرواني، فقد كان رأيه موافقا لرأي أبي هلال العسكري، حينما ركز على عنصر الصورة وقيمتها في توصيل المعنى لما حدد مفهوم البلاغة، ونقل عن بعضهم "أنه مثل المعنى بالصورة، واللفظ بالكسوة، فإن لم تقابل الصورة الحسناء بما يشاكلها ويليق بها من اللباس، فقد بخست حقها وتضاءلت في عين مبصرها"(بن رشيق1307ص216).

وقال ابن الأثير بشأن التصوير والتخييل في الكلام:" أنه قد ثبت وتحقق أن فائدة الكلام الخطابي هو إثبات الغرض المقصود في نفس السامع بالتخييل والتصوير، حتى يكاد ينظر إليه عيانا"(ابن الأثير د.ت ص350). وتوقف حازم القرطاجني عند الصورة في معرض شرحه للتخييل، فقال: "إن المعاني هي الصور الحاصلة في الأذهان من الأشياء الموجودة في الأعيان، فكل شيء له وجود خارج الذهن، فإنه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق لما أدرك منه، فإذا عبر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك أقام اللفظ المعبر به هيئة تلك الصورة الذهنية في أفهام السامعين وأذهانهم(القرطاجني1966ص18،19). لتكون الصورة بابا من أبواب البلاغة والإفصاح عن المعاني فتدركها العقول وتتقبلها النفس البشرية وتتأثر بها.

3. الصورة الفنية عند المحدثين:

تعد الصورة الفنية منهجا جماليا ذاتيا يعكس الرؤية الفنية الخاصة بكل كاتب مبدع. وهذا ما جعل عملية ضبط مفهوم موحد للصورة الفنية شبه مستحيل. ومن ثمة كان لزاما على كل باحث أن ينفرد بوجهة نظر خاصة يصوغها تبعا لما تأثر به، وتشرب منه من مناهل التراث، أو مما أفاده من الدرس الأجنبي.

ولعل أول من تحدث عن الصورة الشعرية واستخدمها معيارا نقديا "زكي مبارك" حين قال:" الصورة الشعرية أثر الشاعر المفلق الذي يصف المرئيات وصفا يجعل قارئ شعره ما يدري أيقرأ قصيدة مسطورة، أم يشاهد منظرا من مناظر الوجود. والذي يصف الوجدانيات وصفا يخيل للقارئ أنه يناجي نفسه، ويحاور ضميره لا أنه يقرأ قطعة مختارة لشاعر مجيد. والصورة الشعرية لا تكمل إلا حين يحيط الوصف بجميع أنحاء الموصوف".(مبارك1936ص64).

والملاحظ على هذا الكلام حصر الصورة في المجالين الإدراكيين البصري والنفسي دون باقي المجالات الأخرى، وقيمة الصورة تكمن في تمكين المعنى في نفس المتلقي والتأثير فيه.

وأما مصطفى ناصف فإنه يعزو التصوير الأدبي إلى عوامل ذاتية تتصل بالشاعر الذي يستدعي حواسه، وقواه الذهنية، والنفسية كي يعقد علاقات تتوشج فيها عناصر الحراك الإبداعي، بغية إحداث التأثير الوجداني، والفكري لدى المتلقي.(ناصف1983ص8) ويؤكد في موضع آخر على ضرورة النظر في السياق حتى يتم إدراك مكامن الجمال والإبداع، فيقول:" ليست الصورة أشياء منعزلة. وإذا كان النقد العربي القديم يكاد لا يحفل بالعلاقة بين الصور، فقد آن لنا أن نتذكر أننا لا نتلقى الصور فرادى، وأننا نعاينها في مساقاتها، ونحن الآن أميل إلى أن نرى كل صورة وقد نبتت مما حولها، وعادت تترك أثرها فيه بحيث تصبح العلاقة بين الأجزاء متبادلة....قد نعجب بصورة مفردة فإن نحن أرجعناها إلى سياقها بدت غريبة أقل جمالا، لأن الجمال علاقات قريبة وبعيدة..."(ناصف1983ص254) فالصورة ملمح بارز من ملامح الجمال والإبداع الأدبي.

وقد طرح مصطفى ناصف تصورا للصورة، فقال: "ولئن كانت الصورة بمحتواها البلاغي القديم تشتمل على التشبيه، وضروب المجاز خصوصا الاستعارة، فإنها اكتسبت حديثا أبعادا ذهنية مجردة، ومناحي رمزية. ومن ثمة أسطورية، وأتيح لها أن تتحرر من ضرورة إيراد طرفين للمماثلة أو ربطها بالمشابهة. وبذلك أصبح جمالها فيضا داخليا نابعا من كونها صورة فحسب..."(ناصف1983ص254)

ويحيل استقراء تطور مصطلح الصورة الفنية إلى مفهومين عبَر عنهما أحد الدارسين، بقوله:" قديم يقف عند حدود الصورة البلاغية في التشبيه، والمجاز. وحديث يضم إلى الصورة البلاغية نوعين آخرين، هما: الصورة الذهنية والصورة باعتبارها رمزا، حيث يمثل كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة اتجاها قائما بذاته في دراسة الأدب الحديث.(البطل1983ص15)وإذا ما انتقلنا إلى ماهر فهمي نجده يحدد الصورة بأنها: "تجسيم لمنظر حسي أو مشهد خيالي، يتخذ اللفظ أداة له، وهناك بالاضافة إلى التجسيم، اللون، والظل، والإيحاء، والإطار، وكلها عوامل لها قيمتها في تشكيل الصورة وتقويمها."(الخالدي1988ص75) وتظل الصورة عند نعيم اليافي أدلة الشعر الجوهرية، إذ تميز بين العصور، والتيارات، والشعراء وتجسد أصالة الفنان، وتومئ إلى عبقريته، وتحمل خصوصيته. وذلك باعتبارها الوسيلة الوحيدة التي يصوغ بها تجربته، دون أن يستعيرها من غيره(اليافي د.ت ص83).

مما سبق يتضح لنا أن الصورة وليدة التجربة، والخبرة التي تميز كل مبدع، وتجعله منفردا عن غيره متميزا له خصوصيته في انتقاء الألفاظ، وتفرده في سبك التراكيب، ليخرج نصه مفعما بالحياة، والحركة، نابضا بمشاعر فياضة وصادقة، ومحركا النفوس،لتكون الصورة ملمحا بارزا للجمال و الإبداع الأدبي.

4. التصوير في الخطاب القرآني:

إن ما تملكه لفظة القرآن من مقدرة على تحريك النفس، والوجدان، والعقل، والمخيلة يشهد لخصائصها بالتفرد في مميزاتها. والتصوير أداة مهمة يسخرها القرآن في ألفاظه لعرض صورة المشهد، ولتقريب الصور إلى الأذهان وتشخيص الحياة بألغازها، وحركاتها، وأبعادها، وتجسيدها في صورة حسية، وإعطائها صفة الحياة. إنها تحيل القرآن إلى نبع من الحياة يلتجئ إليه الكائن الحي فيجد فيه حقيقة نفسه وجوهر وجوده(السلامي1980ص88).لتكون اللفظة القرآنية المحرك الفعال للمشهد والصورة.

إن اللفظة القرآنية تعرض النفوس البشرية، وتنطق بما في منعطفاتها النفسية، وتشارك التصوير في مهمته إذ تحل

محله، لتؤدي مغزاها المحدد لها، ولتكون وافية بحق الأهداف التي يرمي إليها القرآن(السلامي1980ص94). وقد برع سيد قطب في تحليل التصوير الفني في القرآن الكريم، فقال:" التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها، فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة. وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد. وإذا النموذج الإنساني شاخص حي. وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية، فأما الحوادث، والمشاهد، والقصص، والمناظر فيردها شاخصة حاضرة فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار، فقد استوت لها كل عناصر التخييل."(قطب2000ص36)

أما صلاح الخالدي، فيقول: " إن القرآن استخدم طريقة التصوير البيانية المتخيلة للتعبير عن موضوعاته وجعلها قاعدة التعبير البياني فيه، فالإنسان عندما يقرأ الآيات يتخيل في خياله مناظر فنية، وكأنه يرى صورا، ومشاهد، ولقطات معروضة على شاشة العرض أو خشبة المسرح المتخيلة."(الخالدي2000ص338)ويرى باحث آخر بأن التصوير:" ملمح أساسي في النص القرآني يتظافر في تحقيقه اللفظ برنينه الصوتي، والجملة بتراكيبها المتنوعة، وبنغماتها الداخلية، والفاصلة بإيقاعها المتلائم مع النسق اللفظي، والسياق العام، والمشهد الحي بتكريس التصوير فيه إلى التجسيد الحي حركة وتأثيرا... وهذه المنظومة لجماليات التصوير تتوالى في سياق دلالي، فتعطي للمعنى عمقا، وللهدف الديني نفاذا إلى أعماق النفس البشرية فتهزها هزا"(عبد العال ص5). لتكون الصورة بألفاظها و إيقاعها ونغماتها أبلغ أثرا وأسرع نفادا إلى النفس ليتحقق الهدف الديني المرجو.

إن مصدر القوة في التصوير نابع من داخل العبارة بمفرداتها الحية الموحية بجرسها، وحركاتها، وبتزاحم أفكارها، وقوة مغزاها، وما تحمله من إحكام في السبك والتناسق.(السلامي1980ص150)فيكون بذلك التصوير قاعدة بيانية تساهم في الكشف عن المعنى المقصود وإيصاله إلى الذهن .وإن من أسباب عدول القرآن الكريم عن مخاطبة منطق الذهن البشري إلى مخاطبة صوت الحس والوجدان متوسلا بالتصوير عوضا عن التقرير لأن العقل الإنساني مهما بلغ من نضج، وتفتقت طاقاته يظل إدراكه محدودا وقاصرا عن استيعاب عجائب القدرة الإلهية بيسر، فلمنطق التصوير حيويته ومرونته وسحره في تبيان شتى مقاصد القرآن وجوانبه. ووسيلته في ذلك تحويل المجردات إلى محسوسات يستشعرها الحس ويتأثر بها الوجدان(سعد يونس2006ص130).

وأسلوب التصوير ضمن الخطاب القرآني هو ما رسم لشتى الأغراض، والموضوعات، والمعاني صورتها التي نشاهدها على نحو يختلف كليا عن صياغة المعاني وفق آداء تجريدي مفض إلى صورة ذهنية محضة، وشاحبة، وخالية من سمات الجمال الفني(ناصف1983ص56).

إن من أهم ما تتميز به عبارة القرآن أنها تشع بالصور الحية، وظلال المشاهد المتحركة. وكان لابد لهذه الصور أن تتناسق إذ تتمثل في التناسق، ووحدة الانسجام من حيث الدقة، والقوة، ومن حيث الإثارة والتأثير، ومن حيث الهدف الذي من أجله صيغت الصور. ونبعت من محيط البيئة العربية لتظلل الذهن البشري بظلال الصور الحسية ليدرك المغزى. ويزداد عمقا في فهم كنه القرآن في تعابيره الفنية، وأسلوبه، وخصائصه(السلامي1980ص198) ولتغدو بعد ذلك المعاني القرآنية لوحات تصويرية حية تبدو شاخصة للعيان بأشكالها الحية، وهيئاتها التي تموج بالحركة، وبخطوطها، وألوانها، وظلالها، بإجمالها، وتلخيصها، ودقائقها، وتفاصيلها. وفي هذه اللوحات القرآنية يلتقي الغرض الديني بالغرض الفني في كلَ متكامل لا ينفصل(سعد يونس2006ص131).

إن أفضل ما تتميز به الصورة في العمل الأدبي هو الدقة. والدقة في هذا الميدان تحتاج إلى القدرة الفائقة والعقل الثاقب، والإبداع في الملكة التعبيرية للإيصال، والإبانة، والتوضيح، والتأثير. وهي في العبارة القرآنية أصيلة وأكثر دقة، لأن الدقة تنبع من الخبرة بالحياة. والقرآن يستوعب هذه الخبرة في أوسع معانيها ويصوغهابآداة فنية رائعة(السلامي1980ص202).

وإن من خصائص لفظة القرآن أنها تشع بالحياة، فتارة تكون مصورة، وثانية ناطقة، وثالثة معبرة، ورابعة موحية، وخامسة جامعة بين بعضها أو كلها(السلامي1980ص144).وإذا ما عدنا إلى مواضع التصوير في القرآن الكريم فإننا نلاحظ جليا حضور ألفاظ الطبيعة بكثافة لتساهم في بناء ذلك المشهد أو المنظر. وهذا ما ذكره أحمد بدوي حين تحدث عن التشبيه في القرآن، فقال:"وأول ما يسترعي النظر في خصائص التشبيه في القرآن أنه يستمد عناصره من الطبيعة، وذلك سر خلوده، فهو باق ما بقيت الطبيعة. وسر عمومه بين الناس جميعا يؤثر فيهم، لأنهم يدركون عناصره ويرونها قريبة منهم وبين أيديهم". وحتى ندرك آفاق التصوير في القرآن الكريم وجب علينا الوقوف عند بعض الآيات القرآنية التي جاءت مصوَرة لمشاهد تنبض بالحياة والحركة. وكانت ألفاظ الطبيعة فيها أداة ساهمت في بناء المشهد وتقريب الصور إلى الأذهان. ومن ذلك التمثيل القياسي التشبيهي الوارد في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج 31].

وقد ذكر الزمخشري في معرض تفسيره للآية أنه يجوز أن يكون هذا التشبيه من المركب والمفرق، فإن كان تشبيها مركبا، فكأنه قال: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده نهاية، بأن صوَر حاله بحال من خرَ من السماء، فاختطفته الطير، فتفرق مزعا في حواصلها. أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة. وإن كان مفرقا، فقد شبَه الإيمان في علوه بالسماء، والذي ترك الإيمان، وأشرك بالله بالساقط من السماء. وشبه الأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة. وشبه الشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة(الزمخشري1407ص155)، فقد أعقب الله نهيهم عن الأوثان بتمثيل فظاعة حال من يشرك بالله في مصيره بالشرك إلى حال انحطاط، وتلقف الضلالات إياه، ويأسه من النجاة ما دام مشركا تمثيلا بديعا(ابن عاشور2000 ص184)...فبعد أن عدل المشرك عن الإيمان الفطري وكان في مكنته، فكأنه كان في السماء فسقط منها، فتوزعته أنواع المهالك(ابن عاشور2000ص184). وقد بيَن الله مثلين للكفر لا مزيد عليهما في بيان أن الكافر ضار بنفسه غير منتفع بها(الرازي 1988ص28) فبعد أن جاءهالهدى كفر وضل. وقد صوره القرآن الكريم أبدع تصوير، ساهمت فيه الألفاظ والتراكيب، فقوة التصوير نابعة من قوة مفرداته "خر"، "تخطفه"، "تهوي"، "سحيق"، "السماء"،"الريح"، "الطير". وما تحمله من معنى قوي.

كما ساهم الالتفات من الماضي إلى المستقبل في قوله: "خرَ" إلى" تخطفه" و"تهوي" في تقوية المعنى. والحكمة في كونه عدل إلى المستقبل لاستحضار صورة خطف الطير للمشرك وهوي الريح به.(ابن الأثير ص14) وفيها بيان لصورة سريعة الخطوات عنيفة الحركات تمر كلمح البصر، فبين أن تتنازع المشرك أو الكافر أهواءه الضالة، وبين انعدام آثره وقت وجيز قد لا يستطيع المرء إدراكه، فلفظة "تخطفه" لوحدها مصورة لأمر غير متوقع، وذلك أن الأصل في الخطف الاختلاس بسرعة، سواء أكان أرضا أم كان في الجو(الأصفهاني دت ص286،ابن عاشورص185)

وإن إيثار صيغة تفعل "فتخطفه" نكتة ذكرها الزركشي في برهانه، بقوله:" ومن ذلك الخطف والتخطف لا يفرق الأديب بينهما. والله تعالى فرق بينهما، فتقول:(خطِف) بالكسر لما تكرر ويكون من شأن الخاطف الخطف، و(خطَف) بالفتح حيث يقع الخطف من غير أن يكون من شأنه الخطف بكلفة. وهو أبعد من خطف بالفتح، فإنه يكون لمن اتفق له على تكلف ولم يكن متوقعا منه، ويدل عليه أن " فعِل" بالكسر لا يتكرر كعلم وسمع، و"فعَل" بالفتح لا يشترط فيه ذلك، كقتل وضرب (الزركشي 1957ص82) وكما أن التضعيف في صيغة "تخطفه " دلالة على الشدة، والمبالغة، والسرعة القياسية في الخطف.

وأما قوله تعالى: ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ الحج31 تخيير في نتيجة التشبيه، فإما أن تخطف الطير ذاك الكافر الضال، أو تهوي به الريح. وقد فصّل ابن عاشور القول هنا، فقال: "أشارت الآية إلى أن الكافرين قسمان: قسم شركه ذبذبة وشك، فهذا مشبه بمن اختطفته الطير فلا يستولي طائر على مزعة منه إلا انتهبها منه آخر، فكذلك المذبذب متى لاح له خيال اتبعه وترك ما كان عليه. وقسم مصمم على الكفر مستقر فيه، فهو مشبه بمن ألقته الريح في واد سحيق. وهو إيماء إلى أن من المشركين من شركه لا يرجى منه خلاص كالذي تخطفه الطير، ومنهم من شركه قد يخلص منه بالتوبة إلا أن توبته أمر بعيد عسير الحصول"(ابن عاشور2000ص185). فجاءت كل من الألفاظ "تهوي، الريح، سحيق" دالة على السرعة القياسة للخطف التي يؤخذ بها المشرك.

وكما صور الفعل "خرَ" بأصله الاشتقاقي الاضطراب الذي يعتري الكافر، إذ يدل "خر" على اضطراب وسقوط مع صوت(ابن فارس 1979ص147).فقد دل الفعل "خر" على التوتر واللاستقرار الذي يعيشه الكافر.أما لفظة"سحيق" فبينت فظاعة مآل الكافر بعد أن تهوي به الريح إلى مكان بعيد غير معلوم منتهاه، فقد جاء في مقاييس اللغة لابن فارس:"السين والحاء والقاف أصلان:أحدهما البعد. والأخر إنهاك الشيء حتى يبلغ به إلى حال البلى"(ابن فارس1979ص107).ومن المجاز سحقت الرياح الأرض قشرتها بشدة هبوبها(الزمخشري 1407ص211)وهكذا ساهمت لفظة سحيق في تشكيل صورة بينت مآل الكافر وهلاكه. والمتأمل للآية الكريمة وكأنه أمام مشهد، أو صورة فائقة الإبداع والروعة لكافر بعد أن خرَ من السماء. وفي إيثار لفظة" خرَ" دون غيرها، وما تحمله من دلالة على الاضطراب واللاستقرار، وما تحدثه من صوت يقرع المسامع ولا يتوقف بك المشهد عند هذا الحد، بل يتركك سابحا في خيال لا مثيل له، فلم ينتهالمشهد بذاك السقوط من السماء. بل صور تلك السرعة القياسية التي تجسد قدرة الجبار القدير، فبعد أن خر ذاك الكافر من السماء، فهو إمَا بين أن تتخطفه الطير في سرعة قياسية، أوتهوي به الريح في مكان سحيق لا يعلمه إلا الله. وهكذا ساهمت ألفاظ الطبيعة في هذا التصوير الفائق الجمال، فالسماء بعلوها وارتفاعه زادت من مدى السقوط. إذ لم تحدد المسافة، أو البعد، أو المقر المسطر لذلك الخرور، مما زاد الصورة بهاء، والخيال حرية ليتصور المشهد ولتتوقع النتيجة. أمَا الطير فبسرعتها ولهفها للحصول على قوتها، وما تسد به جوعها صورت ذاك التنازع والتنافس الرهيب فيما بينها. وأما الريح فكأنها زادت من أفق خيال المتصور للمشهد والصورة. فإما تتخطف الطير ذاك الكافر، أو تهوي به الريح في مكان سحيق.

وهكذا ساهمت كل من ألفاظ الطبيعة:" السماء، والطير، والريح "في تكوين صورة ومشهد لا مثيل له، نظرا لما تملكه من دلالات وإيحاءات وقدرة فائقة على السيطرة على الوجدان، والعقل، فمثلت لنا فظاعة من يشرك بالله وكيف تتوزعه المهالك ليكون عبرة لغيره.

وإذا ما انتقلنا إلى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (49) ﴾[الروم 48، 49]. فإننا نجد تصويرا بديعا لنزول المطر، وهو من أعجب العلامات على القدرة الإلهية لما فيه من برهان لإثبات الوحدانية وإمكان البعث والنشور، وبما يشاهد من الأدلة في الآفاق، والمرشدة إلى قدرة الله، وعظيم رحمته سبحانه وتعالى بخلقه.

وقد وصف الله في هذه الآية كيفية نزول المطر. وهذا الوصف الموجز هو ما بيَنه العلماء بقولهم إن المطر يتوالد من تصاعد بخار الماء بوساطة حرارة الهواء التي تنشأ في مياه البحار من احتكاك بعض ذراتها ببعض، ومن احتكاك الهواء بسطح البحر. وحين تصعد في الجو تتكاثف، وتتكون سحبا يسقط الماء من خلالها، وينزل إلى الأرض لثقله.(المراغي دت ص36)

وقد أفادت صيغة الحصر في قوله تعالى: "الله الذي يرسل الرياح" بأن الله هو المتصرف في هذا الشأن العجيب دون غيره. وكفى بهذا إبطالا لإلهية الأصنام، لأنها لا تستطيع مثل هذا الصنع.(ابن عاشور 2000ص27) وقد جاء ذكر الرياح في أكثر من موضع في القرآن الكريم جمعا وإفرادا، فحيث ذكرت في سياق الرحمة جاءت مجموعة﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم48]، ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾[الحجر22]، ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات] الروم46. وحيث ذكرت في سياق العذاب أتت مفردة، كقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [فصلت16]، ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب9]، ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة6] فرياح الرحمة مختلفة الصفات والماهيات والمنافع، وإذا هاجت منها ريح أثير لها من مقابلها ما يكسر سورتها، فينشأ من بينهما ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات، فكانت في الرحمة رياحا. وأما في العذاب فإنها تأتي من وجه واحد، ولا معارض ولا دافع. ولهذا وصفها الله بالعقيم في قوله: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ [الذاريات41]. أي تعقم ما مرت به(الزركشي1957ص10). ففي جمع الرياح إشارة إلى أن الرياح التي تثير السحاب مختلفة الجهات. ولهذا كانت لفظة الإثارة أكثر تناسبا من غيرها. ذلك أن الإثارة تحريك القار تحريكا يضطرب به عن موضعه، وإثارة السحاب إنشاؤه بما تحدثه الرياح في الأجواء من رطوبة تحصل من تفاعل الحرارة والبرودة.(ابن عاشور2000ص73)وفي إيثار التعبير بالفعل في قوله تعالى:" يرسل، تثير، يبسطه، يجعله، يخرج." دون التعبير بالاسم، لما للتعبير بالفعل من دلالة على الحدوث والتجدد، في حين يدل الاسم على الاستقرار والثبات.(الزركشي1957ص66) فكان التعبير بالفعل هو الأنسب لوصف ظاهرة طبيعية كسقوط المطر. وهي ظاهرة تشهد تجددا لا انقطاعا، وحركة لا استقرار.

وما أبدع ما أضافته المقابلة بين قوله تعالى:" إذا هم يستبشرون" وقوله: "وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين" من بيان لاختلاف أحوال العباد وقت نزول المطر، وفي وقت إنحباسه، فهم بين استبشار وإبلاس. وقد أوثر التعبير ب "يستبشرون" دون "يفرحون" أو ما يرادفها نظرا لما يدل عليه أصل الكلمة، ذلك أن البشر ظهور الشيء مع حسن وجمال(ابن فارس1979ص252)، لتقابله كلمة "مبلسين" التي تدل في أصلها على السكوت غما وحزنافاختلفت تأثرات نفوس العباد في السراء والضراء. وفي ذلك إشارة إلى عظيم تصرف الله في خلقة الإنسان إذ جعله قابلا لاختلاف الانفعال من اتحاد العقل والقلب. وكما جعل السحاب مختلف الانفعال من بسط وتقطع مع اتحاد الفعل وهو خروج الودق من خلاله(ابن عاشور2000ص74). فكانت أحوال السحاب المختلفة بين بسطه في السماء وجعله كسفا محاكية لأحوال العباد بين الاستبشار والإبلاس، فهم بين يأس، وقنوط، وحزن لعدم نزول المطر، وبين استبشار بنزوله لبالغ أثره في الأرض بإحيائها بعد أن اصفرت وصارت هشيما.

وهكذا جاءت ألفاظ الطبيعة "الرياح، السحاب، الودق، السماء" مصورة لمشهد طبيعي يعج بالحركة، ويبيّن عظيم قدرة الله في خلقه ورحمته بهم، فبنزول المطر تتحسن الأحوال وتتغير.

إن ما يميّز بيان القرآن المعجز انتقاؤه من الألفاظ أمسَها رحما بالمعنى، وأفصحها دلالة، وأبلغها تصويرا، وأحسنها نسقا، وأبدعها سناء، وأكثرها عناء، وأصفاها رونقا وماء(الرافعي1990ص226) ويؤكد ذلك الإبداع في تصوير حال الفزع، والاضطراب، والهول يوم القيامة في قوله تعالى:﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (107) ﴾ [طه 105، 106، 107].

فبعد أن ذكر سبحانه وتعالى حال يوم القيامة، وما يكون فيها من الأهوال التي تجعل المجرمين يتخافتون في حديثهم، وينسون مقدار لبثهم في الدنيا، ويحشرون زرق الوجوه والأبدان. قفى على ذلك بذكر سؤال من لم يؤمن بالحشر عن الجبال وأحوالها في ذلك اليوم، ثم الإجابة عنه. وضم إلى الجواب أمورا أخرى تشرح شؤون هذا اليوم وأهواله(المراغي ص62). منها

السؤال عن حال الجبال يوم القيامة وما سيحل بها. وذكر الزركشي في البرهان: "أن جميع ما في القرآن من السؤال لم يقع عنه الجواب بالفاء إلا قوله تعالى في سورة طه، لأن الأجوبة في الجميع كانت بعد السؤال، وفي سورة طه كانت قبل السؤال"(الزركشي 1957ص116،القرطبي ص246) وسواء أكان سؤالهم استهزاء أم استرشادا، فقد أنبأهم الله بمصير الجبال إبطالا لشبهتهم وتعلما للمؤمنين (ابن عاشور2000ص182)

وقد جاءت لفظ"ينسفها" حاملة ظلال الهول، والفزع على الموقف، ذلك أن أصل النسف في اللغة:كشف الشيء. ونسفت الريح الشيء اقتلعتهوأزالته(الأصفهانيص802)، ونسف الجبال دكّها وتذريتها، وقلعها من مكانها بسرعة(الشوكاني1305ص386). وهكذا دلت لفظة النسف على صعوبة الموقف وهوله.

ولإزالة ما يعلق في النفس من شكوك، ولإماطة ما يخالجها من شبهات يؤتى بالتوكيد(المخزومي1986ص234).وقد تأكد النسف بالمصدر"نسفا" لإزالة كل شك، وتأكيدا، وإثباتا لقدرة الله عزّوجل، فكان لإيثار لفظة النسف دون غيرها أثرا واضحا نظرا لما تحمله لفظة "النسف" من معاني القوة والسرعة التي تبعث في النفس شعور الفزع والهلع.

وليكتمل المشهد المصوَر لهول القيامة، وما يعتريه من فزع، وخوف، وهلع، واضطراب. جاء قوله تعالى: ﴿فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا﴾طه107،106. مبيّنا لمصير الجبال وما ستؤول إليه. فالقاع:الأرض السهلة، والصفصف الأرض المستوية التي لا نتوء فيها، والأمت النتوء اليسير. ومعنى "يذرها قاعا صفصفا" أن الجبال تندك في مواضعها وتسوى مع الأرض حتى تصير في مستوى أرضها بزلزال أو نحوه(ابن عاشور2000ص182).وعادة ما تذكر الجبال في القرآن الكريم في موقع التهويل والتعظيم، ومنه قوله تعالى:﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف143]. وقوله تعالى:﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[الأعراف171]. وقوله تعالى:﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾[مريم90]. وقوله تعالى:﴿الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾القارعة1-5].

وقدذكرالله تعالىحال الجبال يوم القيامةفي أكثر من موضع، منها قوله تعالى: [وترى الجبال تحسبها جامدة].النمل88.[وكانت الجبال كثيبا مهيلا]المزمل14. وقوله تعالى: [وسيرت الجبال فكانت سرابا] النبأ20.وذلك لتصوير أهوال القيامة وشدائدها. وقد أكدت الجملة "لا ترى فيها عوجا ولا أمتا"معنى قوله تعالى "قاعا صفصفا"ليكتمل المشهد المصور لنسف الجبال، والمبين لحال الهلع والذعروالخوف من هول يوم القيامة و قدرة الله عزوجل.

ومما سبق يتبين لنا مدى فاعلية ألفاظ الطبيعة " الجبال، القاع، الصفصف"، كيف لا وقد أضفت بظلالها، وما تحمله من دلالات، وإيحاءات على المشهد المصور لحال الجبال، وما ستؤول إليه حين تقتلع من أصولها حيث لا يرى الرائي في مكان نسفها عوجا ولا أمتا.وهذا بيان لعظيم قدرة الله عزوجل.

خاتمة:

وفي ختام هذه الدراسة التي تناولت مساهمة ألفاظ الطبيعة في التصوير الفني في القرآن الكريم وتحديدا سورة الحج والروم وطه. والتي خصت لفظة السماء والرياح والجبال كأنموذج للتحليل وبيان مدى فاعلية هذه الألفاظ في تشكيل المشاهد وتقريب الصور والمعاني إلى القلوب والأذهان. ولعل من أبرزالنتائج المتوصل إليها ما يلي:

-يأتي التصوير في القرآن الكريم بطرق عدة، منها: التصوير بالحقيقة، وغالبا ما يكون بالألفاظ والجمل دون الحاجة إلى التشبيه، أوالمجاز، أوالكناية، فيأتي التصوير نابضا بالحياة مفعما بالحركة. وقد يكون التصوير بيانيا، وذلك عن طريق التشبيه، أوالمجاز، أوالكناية، لتظهر الصورة فيما بعد مزدهية بأبهى الألوان، متماسكة الأجزاء، قوية المعاني تستحوذ على اللب وتنتهي بسامعها إلى الإيمان العميق بإعجاز القرآن الكريم.

- مدى مساهمة ألفاظ الطبيعة في تكوين كثير من الصور والمشاهد في القرآن الكريم، ومن ثمة تجلية المعاني وتقريبها إلى الأذهان.

- إن ألفاظ الطبيعة المختارة بدقة تسهم في آداء المعنى بقوة جرسها، وما تملكه من إيحاء، وقوة ظاهرة أو خفي

-ساهمت لفظة"الجبال" في تصوير أهوال يوم القيامة وشدائدها فكان مشهد نسف الجبال واقتلاعها كاشفا لحال الهلع والذعر.

-لقد كانت لفظة "الريح" حاملة ضلال الخوف والفزع، فزادت من أفق خيال المتصور لمشهد بين حال الكافر وهلاكه فهو بين حالين، إما ان تخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق بعيد غير معلوم منتهاه.

-إن لفظة"السماء" جاءتمصورة لمشهد طبيعي يعج بالحركة، ويبين عظيم قدرة الله في خلقه ورحمته بهم حين صورت مشهد نزول المطر وتحسن أحوال العباد وتغيرها.

قائمة المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم
2. السلامي عمر، 1980م، الإعجاز الفني في القرآن، ط1، تونس، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله.
3. الخالدي صلاح عبد الفتاح، 2000م، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني،ط1، عمان، دار عمار.
4. الرافعي صادق، 1990م، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، بيروت، دار الكتب العربي.
5. الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله، 1376ه 1957م، البرهان في علوم القرآن، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار إحياء الكتب العربية.
6. الفيروز آبادي، د.ت، بصائر دوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد علي النجار، القاهرة، المكتبة العلمية.
7. ابن عاشور محمد الطاهر ، 1420ه،2000م، التحرير والتنوير، ط1، بيروت، مؤسسة التاريخ العربي.
8. الزبيدي محمد مرتضى الحسيني، 1966م، تاج العروس من جواهر القاموس، ليبيا، دار ليبيا للنشر والتوزيع.
9. قطب سيد ،2006م، التصوير الفني في القرآن، بيروت، دار الشروق.
10. السيد شفيع، 1995م، التعبير البياني، رؤية بلاغية نقدية، اط4، لقاهرة،دار الفكر العربي.
11. القرطبي أبو عبد الله، د.ت، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق سمير البخاري، السعودية، دار عالم الكتب، السعودية.
12. الجاحظ أبو عثمان عمرو، د.ت، الحيوان،تحقيق عبد السلام هارون، بيروت،دار إحياء التراث العربي.
13. الصائغ عبد الإله، 1999م، الخطاب الشعري الحداثوي والصورة الفنية،ط1، بيروت، المركز الثقافي العربي.
14. الجرجاني عبد القاهر، 2003م، دلائل الإعجاز، بيروت،المكتبة العصرية.
15. أبو نواس، 1998م، ديوان، شرح محمود أفندي واصف، ط1، القاهرة،المطبعة العمومية.
16. زهير بن أبي سلمى، 2005م، شرح حمدوطماس، ط2، بيروت، دار المعرفة.
17. –العبسيعنترة بن شداد 1983م، بيروت، مطبعة الآداب.
18. النابغة الذبياني، د.ت، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، ط2، القاهرة،دار المعارف.
19. الجوهري أبونصر بن إسماعيل بن حماد، 1956م، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، القاهرة،دار الكتاب العربي.
20. العسكريأبو هلال، 1981م، الصناعتين، تحقيق مفيد قميحة، بيروت، دار الكتب العلمية.
21. فرانسوا مورو، 1995م، الصورة الأدبية، ترجمة علي نجيب إبراهيم، دمشق، دار الينابيع.

22. ناصف مصطفى، 1983م، الصورة الأدبية، ط3، بيروت، دار الأندلس.
23. عصفور جابر ، 1992م، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ط3، بيروت،المركز الثقافي العربي.
24. اليافي نعيم ، د.ت، الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث، مصر،د.
25. البطل علي، 1983م،الصورة في الشعر العربي حتى القرن الثاني الهجري، دراسة في أصولها وتطورها، ط3، بيروت،دار الأندلس.
26. ابن رشيق، 1307ه، العمدة في محاسن الشعر وآدابه،ط1، القاهرة.
27. الشوكاني، 1350ه، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير،القاهرة،مطبعة مصطفى البابي الحلبي.
28. العسكريأبو هلال، 2002م، الفروق اللغوية، تحقيق محمد باسل عيون السود، ط2، بيروت، دار الكتب العلمية.
29. المخزوميمهدي،1406ه،1986م، في النحو العربي نقد وتوجيه، ط2، بيروت، دار الرائد.
30. - قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، عربي إنجليزي فرنسي، ط1، بيروت، دار العلم الملايين، مؤسسة القاهرة للتأليف والترجمة.
31. الزمخشريأبو القاسم بن عمر ،1407ه، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، بيروت، دار الكتاب العربي.
32. ابن الأثير، 1960م، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، ط2، مصر ، دار النهضة.
33. أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ، 1417ه،1996م،المصباح المنير،بيروت،المكتبة المصرية.
34. مطلوب أحمد ، 1989م،معجم النقد العربي القديم،ط1،بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة.
35. إبراهيم أنيس وآخرون، 1392ه، المعجم الوسيط،ط2، القاهرة، المجمع اللغوي.
36. الرازي فخر الدين محمد بن عمر التميمي ، (1421ه-2000م)، مفاتيح الغيب، بيروت، دار الكتب العلمية.
37. الأصفهانيأبو القاسم الحسين الراغب، د،ت، المفردات في غريب القرآن، دمشق، مكتبة نزار مصطفى الباز.
38. ابن فارس، 1399ه، 1979، مقاييس اللغة،تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط1، بيروت، دار الفكر.
39. عبد العال محمد قطب، 2006م، من جماليات التصوير في القرآن الكريم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
40. القرطاجني حازم،1996م، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الجبيب بن خوجة، تونس، دار الكتب الشرقية.
41. زكي مبارك، 1996م،الموازنة بين الشعراء، ط2، مصر، مطبعة مصطفى الحلبي.
42. الخالدي صلاح عبد الفتاح، 1998م، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، ط1، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.
43. قدامة بن جعفر، 1978م، نقد الشعر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، ط1، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية.